موت إنسان

قصة يمانية بقلم محمد عبد الولي

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا ، وكنت اسير وحيدا الى « المعشار » لعلي اجد هنالك شخصا ما اقضي معه ساعة من الزمن حتى يصل القات .

كان عمي قد ذهب لاصلاح ما احدثته الامطار من خرائب في ارضنا وصحب معه بعض العمال وترك خلفي اكثر من شخص يطالبونني بارسال قات لهم .

الطاحون هو الشيء الوحيد الصاخب في جو القرية التي كانت هامدة ككل أيام السنة، وكانت قصبته التي ترسل القليل من الدخان رابطتي الوحيدة بعدن حيث أعمل في مصافي البترول ، وكم كنت أشتاق للقرية حين أكون بعيدا عنها ، ولكني سرعان ما أمل حياتي الرتيبة التي تتكرر يوميا وبدون هدف ، حياة كلها سأم : مجرد اكل وشرب ، ومضغ قات ، ونوم ، هكذا يوميا ! لا تغير هناك حتى ولو كانت قريتنا الصغيرة – التي يتبارى ساكنوها بابداع كل انواع الجمال لتحسين بيوتهم – مليئة بالشباب امثالي الذين كانوا يقضون ايام عطلهم في القرية في احضان نسائهم .

ونادرا ما نلتقي ، اذ كان « المعشار » مجمعنا الصغير حيث نبقى هناك في انتظار وصول بائعي القات ، ولكن لا يكاد صوت المؤذن يرتفع ظهرا حتى تكون القرية فارغة من جديد ، الجميع في منازلهم يستعدون لمضغ القات والهموم والضجر .

– اية .. ايه .. الى اين انت ذاهب ؟

كان صاحب الطاحون ينفض عنه غبار الدقيق العالق بكل ملابسه ووجهه .. واستمر قائلا دون ان اجيبه .

– يقولون « ابن الحاج » مريض جدا .. ما الذي يمكن عمله الان؟ لا حول ولا قوة الا بالله ..

– مسكين قلتها ببلاهة

ولم اتم كلامي حتى كان قد غاب داخل الطاحون وسمعت صوته يرتفع وكانت هناك اصوات نسائية اخرى ، واستمرت قدماي في مسيرها نحو ملتقى القات .

كان « ابن الحاج » قد اصيب بالشلل منذ اكثر من عام ، ولكن المرض عاوده بشدة منذ يومين اذ انتقل الشلل من الجانب الايمن الى الجانب الاخر واصبح المرض يهدد قلبه بالتوقف .

– عبد الرحمن .. عبد الرحمن انتظرني قليلا سنسير معا .

كان ذلك صوت شاهر نعمان .

– هيا يا ابنائي ، يا لكم من عفاريت ، دائما ورائي ، ورائي .

انه كالعادة مشغول باولاد ابنه .. دائما يحملهم معه على كتفيه او يسوقهم كالغنم امامه اينما سار .

كان قد تعدى السبعين من عمره ولكنه كان يملك قوة شاب ، وكثيرا ما تحدى الذين يدعونه « بالعجوز » وسمى لذلك « بعنترة » .

– اين كنت منذ الصباح ؟

قالها وهو يتابع اطفاله بقلق :

– لقد استيقظت منذ قليل .

اجبته دون ان التفت اليه وقد وضعت عمامتي الصغيرة البيضاء على رأسي اتقي بها لسعات الشمس الحارة .

– هل انت في طريقك الى المريض ؟

– لا ...

كان اطفاله قد سبقوه ، وبدأ يسير بجانبي بخطواته المشدودة وقال:

– لماذا ؟

ولم اجب . لم ار المريض منذ بدأ يمرض ، حتى انني حاولت زيارته غير مرة ولكني عدت من باب المنزل لان المرض يخيفني واكره شيء عندي هو زيارة مريض .

– اسمع يا عبد الرحمن : هل انتقل المرض حقا الى جانبه الايسر وهل صحيح انه لا يستطيع الحراك ؟

نظرت اليه دون معنى ، كنت اعرف ان المرض قد استفحل ودون انتظار رد مني قال :

– لكنه كان بالامس يستطيع التحرك ؟

واستمر يقول بعد ان حمل احد اطفاله على كتفه .

– قبل يومين كنا معا وكان حكما بين الحاج اسماعيل وصهره ، وكان يضحك وصحته طيبة .. كان قد بدأ يتغلب على المرض ..

واضاف بعد ان تنهد بضجر :

– يا الهي هذه قرية ملعونة ، اذا مرض فيها انسان لا يجد الا الموت في انتظاره ، اوه اما المدينة ففيها كل شيء : دكاترة ومستشفيات وعناية بالانسان .. و ...

كنا قد وصلنا قرب شجرة « الاثاب » التي تظلل الطريق وحيث نلتقي ببائعي القات ، وامامنا كانت تنتصب دار المريض ، وكانت فتاة صغيرة تجري متجهة نحونا ، وعلى سقف الدار كان شخص ما يقف هناك، وتوقف شاهر عن الحديث وهو ينظر الى الدار وقال :

– اسكتوا يا اولاد ! دعونا نسمع ما الذي يقوله ...

والتفت نحوي قائلا :

– هل تسمع شيئا ؟ اسكتوا يا اطفال .

وصاح باعلى صوته :

– ماذا تقول ؟

واتى صوت الرجل الواقف هناك تتقاذفه الرياح بطيئا .. متقطعا .. فيه رنة بكاء :

– يا جماعة .. الراجل .. توفى ..

– صدق !!؟ قالها شاهر بسرعة .

واتى الصوت من جديد .

– يا جماعة .. الراجل .. توفى .

كان الصوت يبكي وهو يعيد ما قاله .

ووقفت مشدودا الى الارض كان الافيا من الاطنان قد انهالت علي فجأة بضربة جعلتني التصق بالارض .

– توفى .. مات ..

لم اكن اعرف ما اعمله .. فقط .. كنت ارتجف .

– يا الله يا اولاد الى المنزل .. لا حول ولا قوة الا بالله .

كان شاهر يقود اولاده وهو مشدوه تماما ، ينظر الي ويردد كلاما

لم اسمعه ، لعله كان يقرأ شيئا من القرآن .

ـ سأعيد الاطفال الى المنزل وسأ ...

نظرت اليه بعينين مفتوحتين، وفي داخلي الاف افكار تعذبني، وقلت:

ـ ها .. ما العمل ؟. ما الذي سنعمله الان ؟.

لم يجب ، واستمر في تحريك شفتيه ، وكان الاطفال يسيرون امامه وقد حواهم صمت غريب كانهم شعروا بان شيئا غريبا قد حدث . ومضى شاهر بعيدا .

كنت محتارا ، لا اعرف الى اين اتجه ، هل اذهب الى حيث يوجد الميت ، ام اعود ؟ ومرت الفتاة الصغيرة ، وكانت تجري ناحية الطاحون ، وسمعت صوت شاهر يقول :

ـ كيف عمك يا بنت ؟

اجابته وهي منطلقة .. شبه مشدوهه :

ـ يقولون .. نعم .. مات !!

بقيت وحيدا في الطريق ، امامي دار الميت ، وخلفي طريقان طريق الى الطاحون والمنزل ، وطريق الى المقبرة ، ومع التفاتي لكي اعود الى المنزل كانت امامي من بعيد تبدو مشاهد القبور ، لست ادري اية قوة جعلتني ارتجف .

كانت القبور تكبر والمشاهد تتحرك ، الموت شيء رهيب . وفي لحظة خاطفة شعرت بطعم غريب في فمي ، واحسست بالخوف وانا هل سأموت ايضا يوما ما ؟ وكيف ؟ ما ابشع ان يموت الانسان ، ان تتوقف فيه الحياة.

واسرعت الى الطاحون ، اريد ان تختفي المقبرة من امامي ورأيت الطاحون يرسل نفثات كبيرة من الدخان وبصوت مرتفع كان يلفظ انفاسه، وكانت حلقات الدخان ترتفع عاليا ، سوداء ثم تغيب في الفضاء ، هل هكذا ترتفع روح الانسان ؟ كان الطاحون قد توقف عن العمل .. عن الحياة

وسمعت صاحب الطاحون يقول وهو ينفض غبار الدقيق من كل مكان في جسده :

ـ متى .. ها .. لا حول ولا قوة الا بالله !

وكانت الفتاة الصغيرة واقفة امامه تنظر اليه باستغراب وترقب منتظرة أن يعمل شيئا .. ان يصيح مثلا كما صاحت امها .. ان يضرب رأسه في اي شيء ، ان يبكي ، ان يرتمي على الارض الم يخبروها ان تقول له « ان عمي .. نعم .. مات » كل ما رأيته هما شفتاه تتحركان ولا شيء اخر .

ـ اذهبي .. سألحق بك بعد قليل .

* * *

كان عدد قليل من الناس لا يتجاوزون عدد اصابع اليد فوق سطح منزل المتوفي ، كان البعض يخيطون الكفن حين اطلت عليهم ولم اكن اعرف ماذا اعمل ، هل اجلس ، ام اشاركهم في الخياطة ، لكني سرعان ما اخترت ركنا ورحت انظر الى القرية التي كانت لا تزال صامتة ، كان شيئا لم يحدث ، وكان لم يمت انسان منذ اقل من ساعة .

ـ اين الفقية يا جماعة ؟

التفت لارى من تكلم ، كان الجميع مشغولين بعملهم ، ربما كان احدهم يريد ان يسألني .. فاجبت :

ـ لم اره منذ امس .

قال صاحب الطاحون بسرعة :

ـ ذهب اليوم الى الجبل لاصلاح الارض هناك .

ـ لماذا لم يبق ما دام يعرف بان الرجل مريض ؟

قلتها دون ان انتظر الرد لاني عدت الى النظر في القرية من جديد لعلني المح احدهم قادما او لالعن هذه الحياة القذرة التي تجعل الناس لا مبالين ، حتى حين يغادر هذه الحياة انسان فانهم لا يودعونه الا بعد الحاح ، والا اين ذهب كل سكان القرية ؟

وسمعت صوت احدهم يقول :

ـ لقد حضر الفقية الى هنا في الصباح وقد رأى الرجل في حالة خطيرة ولكنه بالرغم من ذلك لم يبال وذهب وراء ارضه .

ـ الطمع يا شيخ .. الدنيا طمع .

قالها احدهم وعاد الى الابرة والثوب الابيض الذي سيكون اللباس الاخير لرجل مات منذ ساعة .

ـ من يتطوع اذن لاحضار الفقية ؟

قلتها وانا اقف استعدادا للبحث عنه وهروبا من ذلك الجو القاتم الذي يخيم على المنزل .

ـ لقد ارسلنا « علي » للبحث عنه .

ـ اين ؟

ـ هناك ، خلف الاكمة .

ـ اوه لن يصل الا وقد دفنا الرجل .

قلتها وعدت الى مجلسي ، ودخل « الصوفي » في تلك اللحظة واتجه ناحيتي وجلس .

ـ هل وصلت الان فقط ؟

ـ لا .. لقد حضرت الصباح وقلت للجماعة بان الرجل يحتضر ، اذ ان المرض قد انهكه .. لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون .

والتفت الى الحاضرين وقال :

ـ اين ذهب الناس ؟

اجبته وانا اشير الى القرية والارض .

ـ هناك .. لديهم اعمال .

قال بعد ان تنهد :

ـ ايه .. لم يعد الناس الناس ، زمان يا ابني كانوا يقولون فلان مريض فتجد كل الناس يتسابقون لزيارته ومساعدته.. دنيا.. اخر الزمان لا حول ولا قوة ..

انهى كلامه بهزة من رأسه فيها كل اليأس والاسى .

سألته قائلا :

ـ هل رأيت الميت الان ؟

ـ لا .. لا استطيع ان ارى ميتا ..

ـ كيف وانت « صوفي » تداوي الناس .

ابتسم قائلا :

ـ انا اداويهم ولا اميتهم ، المريض سأراه واعالجه اما الميت ...

وهز رأسه مرات ...

وسمعنا صوتا يقول :

صدر حديثا :

في سبيل: الحركة العربية الثورية الشاملة

محاولة تلقي ضوءا على اسباب الاختلاف بين المنظمات الوطنية كما انها تبين المبررات الموضوعية لقيام جبهة قومية .

تأليف ناجي علوش

دار الطليعة ـ بيروت ص. ب ١٨١٣

ـ يا جماعة ... من سيغسل الميت ؟
ـ الفقية حين يحضر ..

ـ لن يأتي الان ، وقد يتأخر كثيرا .
واشار الرجل الى الصوفي وقال :

ـ انت يا صوفي وانا ساساعدك
هز « الصوفي » رأسه بشدة قائلا :
ـ لا .. لا .. لم اغسل ميتا في حياتي .

ـ اذن اي واحد منا يا ناس ، سيتجمد الرجل تحت .
وبدأ نقاش طويل ، ولم يتفقوا على رأي .
وقال احدهم :

ـ والجنازة ، اين المحمل ؟
ورد اخـر .
ـ هناك في المسجد .
وصاح بجماعة كانت قرب المسجد لاحضار المحمل .

مرت اكثر من ساعة ولم يصلوا الى حل ، والنساء يرفضن ان يغسل ميتهم الا الفقية .. والفقية لا اثر له ..

كان الكفن قد أعد . والقبر قد حفر ، والمحمل بالباب كـل شـيء جاهز .. الا الفقية ..

ـ يا ناس ، دعوا احدكم يذهب وراء الفقية ..

ـ لقد ذهب « علي » منذ زمن .

ـ هناك شخص تحت الجبل .

وانطلق صوت قوي من جانبي يسأل عن الفقية كان لا يزال فـي الطريق .. انه في الطريق .

وتغامز بعض الناس حين رأوا بائعي القات من السقف وقال احدهم:

ـ اعوذ بالله ، الا يستطيعون الصبر قليلا ؟ الدنيا شغلتهم ، يـا رب تنجينـا .

ثم التفت الى رجل رآه يتحرك لترك المنزل نحو القات وقال له :

ـ خذ ريال وخذ لي معك قات ايضا ...

وابتسمت وانا اترك المنزل للاخرين .

* * *

وغاب الرجل تحت الارض ، وكانت كلمات المسيح ترن في اذنـي طوال الطريق ..

« فليدفن الموتى موتاهم »

وكنت يائسا ، بالامس كان هناك انسان معنا ، بل انه كان منـذ ساعات يعيش ويتألم ، وها هو ذا قد انتهى ما الذي خلف على هـذه الارض من ذكرى ، انني متأكد انه سينمحي من اذهان الناس بعد ايام .. بل انه قد انتهى قبل ان يدفن .. انتهى والناس يبتاعون القات ، انتهى وكل واحد يتعجل الدفن ليذهب الى منزله . انتهى قبل ان تقوم تلـك المناقشة فوق قبره حين قال عمه يرد على الفقيـه الذي طالب بـاقامة « ليلة ذكر » للميت وان تذبح الغنمة الوحيدة التي يملكها .. حين قال :

« الايتام احق بها .. الايتام احق بها .. »

محمد عبد الولي

دار الاداب تقدم

دروب الحرية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سن الرشد
وقف التنفيذ
الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

★ نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
★ تحفة ادبية يجب ان لا تخلو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل